﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن الحق سبحانه يوضح هنا أن مشيئته فى إنزال العقاب قد وَضُحَتْ أمام الذين عاصروا رسالة محمد ﷺ فى مساكن الأقوام التى سبقتهم ؛ وكفروا برسالات الرسل ، وسبق أن ضرب لهم الحق سبحانه الأمثال بهؤلاء القوم وبما حدث لهم . والمَثَلُ إنما يضربه الله لِيُقرِّب بالشىء الحسى ما يُقرِّب إلى الأذهانِ الشىءَ المعنوى .

ويستمر قوله الحق من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾

والمكْر - كما نعلم - هو تبييت الكَيْد فى خفاء مستور ، ومأخوذ من الشجرة المكمورة ؛ أى : الشجرة التى تُدارِى نفسها . ونحن نرى فى البساتين الكبيرة شجرةً فى حجم الإصْبَع ؛ وهى مجدولةٌ على شجرة أخرى كبيرة . ولا تستطيع أن تتعرف على ورقة منها ، أو أن تنسب تلك الورقة إلى مكان خروجها ، ومن أىّ فرع فى الشجرة المُلْتفة إلا إذا نزعتها من حول الشجرة التى تلتفّ من حولها .

ومَنْ يُبيِّت إنما يشهد على نفسه بالجُبْن والضعف وعدم القدرة على المواجهة ، قد يصلح أن تُبيِّت ضد مُساوٍ لك ؛ أما أنْ تُبيِّت على الحى القيوم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؛ فتلك هى الخيبة بعينها .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى مواجهة ذلك :

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وقال عن مكْر هؤلاء :

﴿ وَلا يَحِيقُ[1] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر]

ونعلم أننا حين ننسب صفةً لله فنحن نأخذها فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١) ﴾ [الشورى]

وعادة ما ننسب كل فعل من الله للخير ، كقوله سبحانه :

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ [الأنبياء]

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله هنا :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ .. (٤٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : قاموا بالتبييت المناسب لحيلتهم ولتفكيرهم ولقوتهم ؛ فإذا ما قابل الحق سبحانه ذلك ؛ فلسوف يقابله بما يناسب قوته وقدرته المطلقة ، وهو سبحانه قد علم أزلاً بما سوف يمكرونه ، وتركهم فى مكْرهم .

فانتصارات الرسالات مرهونٌ بقوة المُرْسَل وأتباعه ، وهم

---

(١) حاق به الشيء : أصابه وأحاط به . وحاق به الأمر : لزمه ووجب عليه . والحيق : ما يصيب الإنسان من مكروه فعله . [المعجم الوجيز ـ مادة : حيق] .

يقابلون خصوماً هُم حيثية وجود الرسالة ؛ ذلك أنهم قد ملأوا الأرض بالفساد ، ويريدون الحفاظ على الفساد الذى يحفظ لهم السلطة ؛ والدين الجديد سيدُكُّ سيادتهم ويُزلزلها ؛ لذلك لا بُدَّ ألاَّ يدخروا وُسْعاً فى محاولة الكَيْد والإيقاع بالرسول للقضاء على الرسالة .

وقد حاولوا ذلك بالمواجهة وقت أنْ كان الإسلام فى بدايته ؛ فأخذوا الضعاف الذين أسلموا ، وبدءوا فى تعذيبهم ؛ ولم يرجع واحد من هؤلاء عن الدين .

وحاولوا بالحرب ؛ فنصر الله الذين آمنوا ، ولم يَبْق لهم إلا المكْر ، وسبحانه القائل :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[1] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وحاولوا أن يفسدوا خليّة الإيمان الأولى ، وهى محمد بن عبد الله ﷺ ، وظنُّوا أنهم إنْ نجحوا فى ذلك ؛ فسوف تنفضُّ الرسالة . فحاولوا أن يشتروه بالمال ؛ فلم يُفلحوا .

وحاولوا أن يشتروه بالسيادة والمُلْك فلم ينجحوا ، وقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[2] .

---

(١) ليثبتوك . أى : يجرحوك جراحة لا تقوم معها . وأثبت فلان ، أى : اشتدت به علته ، أو أثبتته جراحة فلم يتحرك . [لسان العرب ـ مادة : ثبت] .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق .

ثم قرروا أن يقتلوه وأن يُوزِّعوا دمه بين القبائل ، وأخذوا من كل قبيلة شاباً ليضربوا محمداً ﷺ بالسيوف ضَرْبة رجلٍ واحد ، ولكنه ﷺ يهاجر في تلك الليلة ، وهكذا لم ينجح تبييتهم :

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ..(٤٦)﴾ [إبراهيم]

أي : أنه سبحانه يعلم مكرهم .

ويتابع سبحانه قائلاً :

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾ [إبراهيم]

أي : اطمئن يا محمد ، فلو كان مكرهم يُزيل الجبال فلنْ ينالوك ، والجبال كانت أشد الكائنات بالنسبة للعرب ، فلو كان مكرهم شديداً تزول به الجبال ، فلن يُفلحوا معك يا رسول الله ، ولن يُزحزحوك عن هدفك ومهمتك .

والحق سبحانه يقول :

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا[1] مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الحشر]

وإذا كان مكرهم يبلغ من الشدة ما تزول به الجبال ؛ فاعلم أن الله أشدُّ بَأْساً .

ويُقدِّم سبحانه من بعد ذلك حَيْثية عدم فاعلية مَكْرهم ، فيقول :

(١) التصديع : التفريق والتشقُّق . والصَّدْع : الشق في الشيء الصُّلْب . والتصدع : تكسُّر الصخور بقوة . [لسان العرب . المعجم الوجيز ـ مادة : صدع] .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ(١) مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ(٢) ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولو كان لمكرهم مفعولٌ أو فائدة لَمَا قال الحق سبحانه أن وعده لرسله لن يُخْلَفَ ، ولكن مكرَهم فاسدٌ من أوله وبلا مفعول ، وسبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : فوَعْد الله لرُسله لا يمكن أن يُخْلَفَ .

والوعود في القرآن كثيرة ؛ فهناك وَعْد الشيطان لأوليائه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ(٣) وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً .. (٢٦٨) ﴾ [البقرة]

وهناك وَعْد من الله للمؤمنين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [النور]

---

(١) حسب الشيء حِسْبَاناً : ظنه . فلا تحسبن : أي : لا تظنن . [المعجم الوجيز ـ مادة : حسب] .

(٢) العزيز : من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى . قال الزجاج : هو الممتنع فلا يغلبه شيء . وقال غيره : هو القوى الغالب كل شيء . [لسان العرب ـ مادة : عزز] .

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (١/٣٢١) : « أي : يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ، وهو مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق » .

فإذا كان الحق سبحانه لا يُخلف وَعْده لأتباع الرسول ؛ أيُخلف وَعْده للرسول ؟

طبعاً لا ؛ لأن الوعد على إطلاقه من الله ؛ مُوفىً ؛ فكيف إذا كان للرسل وللمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر]

والنصر يقتضى هزيمة المقابل ، ويحتاج النصر لصفة تناسبه ؛ والصفة المناسبة هى صدوره من عزيز لا يُغلب ؛ والهزيمة لمن كفروا تحتاج إلى صفة ؛ والصفة المناسبة هى تحقُّق الهزيمة بأمر مُنتقِم جبّار .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا[1] لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾

ويُخوِّفهم الحق سبحانه هنا من يوم القيامة بعد أن صوَّر لهم ما سوف يدّعونه ، بأن يُؤخِّر الحق حسابهم ، وأنْ يُعيدهم إلى الدنيا لعلّهم يعملون عملاً صالحاً ، ويجيبوا دعوة الرسل .

ويوضح سبحانه هنا أن الكون الذى خلقه الله سبحانه ، وطرأ

---

(١) برزوا لله : خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله . [تفسير ابن كثير ٢/٥٤٤]
والبروز : الظهور والخروج . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً .. (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : ظاهرة بلا جبل ولا تل ولا رمل . [لسان العرب ـ مادة : برز] .

عليه آدم وخلفتْه من بعده ذريته ؛ قد أعدّه سبحانه وسخّره فى خدمة آدم وذريته من بعده ؛ وهم يعيشون فى الكون بأسباب الله المَمْدودة فى أنفسهم ، والمنثورة فى هذا الكون لكل مخلوق لله ، مؤمنهم وكافرهم ؛ فمَنْ يأخذ بتلك الأسباب هو مَنْ يغلب .

وسبحانه القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ[1] الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

وهكذا شاء الله أنْ يهبَ عباده الارتقاء فى الدنيا بالأسباب ؛ أما حياة الآخرة فنحن نحياها بالمُسبِّب ؛ وبمجرد أنْ تخطرَ على بال المؤمن رغبةٌ فى شىء يجده قد تحقق .

وهذا أمر لا يحتاج إلى أرض قَدَّر فيها الحق أقواتها ، وجعل فيها رواسى ؛ وأنزل عليها من السماء ماء ، إذن : فهى أرض غير الأرض ؛ وسماء غير السماء ؛ لأن الأرض التى نعرفها هى أرض أسباب ؛ والسماء التى نعرفها هى سماء أسباب .

وفى جنة الآخرة لا أسبابَ هناك ؛ لذلك لابُدّ أن تتبدَّل الأرض ، وكذلك السماء .

وقوله الحق :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

فهو يعنى ألا يكون هناك أحد معهم سوى ربهم ؛ لأن البروز هو الخروج والمواجهة .

---

(١) الحرث : الثواب والنصيب . وحرث الدنيا : كسْبها . [لسان العرب ـ مادة : حرث] .

والمؤمن وجد ربه إيماناً بالغيب فى دُنْياه ؛ وهو مؤمن به وبكل ما جاء عنه ؛ كقيام الساعة ، ووجود الجنة والنار .

وكلنا يذكر حديث رسول الله ﷺ مع أحد الصحابة[1] حين سأله الرسول ﷺ : كيف أصبحتَ ؟ فقال الصحابى : أصبحتُ مؤمناً بالله حقاً . فقال له الرسول ﷺ : لكل حق حقيقة ؛ فما حقيقة إيمانك ؟ قال الصحابى : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها ـ أى : تساوى الذهب بالتراب ـ وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون . فقال له الرسول الكريم ﷺ : « عرفت فالزم »[2] .

هذا هو حال المؤمن ، أما الكافر فحاله مختلف . فهو يبرز ليجد الله الذى أنكره ، وهى مواجهة لم يَكُنْ ينتظرها ، ولذلك قال الحق سبحانه فى وَصْف ذاته هنا :

﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

وليس هناك إله آخر سيقول له « اتركهم من أجل خاطرى » .

وفى آية أخرى يقول عن هؤلاء :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ[3] بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣٤٣/١) وعزا الحديث لابن المبارك فى الزهد .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من حديث الحارث ابن مالك الأنصارى .

(٣) السراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفضاء كأنه ماء ، وليس بماء . [القاموس القويم ٣٠٨/١] والقيعة جمع قاع ، وهى الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب . [تفسير ابن كثير ٢٩٦/٣] .

أى : أنه يُفَاجأ بمثل هذا الموقف الذى لم يستعد له .

وقوله :

﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

أى : القادر على قَهْر المخلوق على غير مُرَاده .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ[1] فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) ﴾

والمجـرم هو مَن ارتكب ذنباً ، وهو هنا مَن ارتكب ذنب القـمّة ، وهو الكفـر بـالله ، ومن بعـده مَن ارتكب الذنوب الـتى دون الكفـر ، وتراهم جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض فى « قَرنٍ » وهو الحبل ، أو القَيْد الذى يُقيِّدون به .

والأصفاد جمع صَـفَد ، وهو القيد الذى يوضـع فى الرِّجْل ؛ وهو مـثْل الخُلْخال ؛ وهناك مَنْ يُـقيّـدون فى الأصفـاد أى : من أرجلهم ، وهناك مَنْ يقــيـد بالأغـلال . أى : أنْ توضـع أيديهـم فى سـلاسل ، وتُعلَّق تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً .

وكلُّ أصحاب جريمة مُعيَّنة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كل جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا ـ فى الغالب ـ مودَّة وتعاطف ، أما هنا فسنجدهم متنافـرين ، وعلى عداء ، ويلعن كل منهم الآخر ؛ وكل

---

(١) مقرنيـن : مشدودين مقيـدين بعضهم مع بعض . والأصـفاد : القيود . [القامـوس القويم ٣٧٨/١] .